

العلاقات بين الأديان عند العامري والبيروني

■ منى أحمد أبو زيد

تمهيد:

يُعَدُّ الإسلامُ الدينَ الخاتمَ في سلسلة الأديان السماويّة، فالديانات الثلاث: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام ذات جذر واحد، هو الجذر الإبراهيمي، وهي حلقات متعاقبة في تطور الفكر التاريخي.

وتتسم هذه النظرة التاريخيّة بالكونيّة والعالميّة؛ فالإنسان واحد، والبشر إخوة، وإن كانوا قد اختلفوا شعوباً وقبائل؛ فإن الاختلاف غايته التعارف ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ﴾ [الحجرات: 13].

والإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وأرسل به جميع الرسل - صلوات الله عليهم أجمعين - منذ نوح عليه السلام أول الرسل، إلى إبراهيم أبي الأنبياء، حتّى محمد صلى الله عليه وآله آخر الأنبياء وخاتم المرسلين. وقد تضافرت النصوص النقلية لبيان تلك الحقيقة، ووردت آيات كثيرة تبين أن الدين الحق هو دين الإسلام، فقال تعالى:

■ أستاذ الفلسفة الإسلاميّة - كليّة الآداب - جامعة حلوان - مصر.

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: 3]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: 19].
وأكد النبي ﷺ هذا الأمر؛ فكان إذا قام إلى الصلاة يستفتح بقوله: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَكُسْبِي وَحْيَايَ وَمِمَّا قَالَهُ لِلرَّبِّ الْعَلِيمِ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 162 - 163]¹.

حرص مفكرو الإسلام على تأكيد هذه الحقيقة، من خلال عقد مقارنات بين الإسلام وغيره من الديانات، ومن هؤلاء كان أبو الحسن العامري² (ت: 381هـ)، وأبو الريحان البيروني³ (ت: 440هـ)، وهما من نخصص لهما هذه الدراسة لمعرفة موقفهما.

أولاً: التأريخ للأديان في الإسلام

يحمل القرآن فكرةً تفوص في أعماق التاريخ؛ إن الإسلام عقيدة إبراهيم ﷺ، وعقيدة كل الأنبياء، فتحدث «عن أساطير الأولين، وأنباء القرى، وحقق الرغبة في معرفة تفاصيلها وتدوينها»⁴.

تلك الوحدة الكبرى بين الرسائل هي قاعدة التصور الإسلامي، وهي التي جعلت من الأمة الإسلامية الوارثة لتراث العقيدة، القائمة على دين الله في الأرض، والتي تثبت عالمية الإسلام.

- 1 - أخرجه الإمام مسلم 534/1 - 535 - كتاب صلاة المسافرين، والإمام أحمد: المسند 230/1.
- 2 - هو أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري، من كبار الفلاسفة المسلمين في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. من مؤلفاته: الإعلام بمناقب الإسلام، والأمد على الأبد، والتقرير لأوجه التقدير، إنقاذ البشر من الجبر والقدر.
- 3 - هو محمد بن أحمد الخوارزمي، الملقب بأبي الريحان، وشهرته البيروني، كان نابغة عصره في علوم كثيرة. تبخر في العلوم الإنسانية من أدب ولغة وتاريخ وجغرافية، وكان جل اهتمامه بالفكر العلمي. من مؤلفاته: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، والآثار الباقية عن القرون الخالية، والقانون المسعودي، وغيرها.
- 4 - شاكر مصطفى: التأريخ العربي والمؤرخون، بيروت، 1978م، ج 1، ص 57.

وانطلاقاً من الاعتقاد بعالمية الإسلام، كرس عدد من العلماء المسلمين مؤلفاتهم للتأريخ للأديان والمقارنة بينها، وتمثلت هذه المؤلفات في أربع مجموعات:

أولها: الموسوعات التاريخية، التي لم يكن أصحابها من علماء مقارنة الأديان بالضرورة، وإن كان بعضهم ذا اهتمام منظم بها؛ مثل الطبري (ت: 310هـ) في تاريخه المسمى «تاريخ الرسل والملوك»، والمسعودي (ت: 346هـ) في «مروج الذهب»، والمقدسي (ت: 355هـ) في «البدء والتأريخ». وهذه المصادر وأمثالها تحتوي على معلومات كثيرة ودقيقة عن الأديان المختلفة.

**يحمل القرآن فكرة
تغوص في أعماق
التاريخ: إن الإسلام
عقيدة إبراهيم عليه السلام،
وعقيدة كل الأنبياء،
فتحدث عن أساطير
الأولين، وأنباء القرى،
وحفز الرغبة في معرفة
تفاصيلها وتدوينها.**

وثانيها: كتب علم الكلام على اختلاف مدارسها؛ إذ إن مهمة هذا العلم هي الدفاع عن الإسلام ضد منتقديه من أصحاب الديانات الأخرى، وكثير من المتكلمين تناولوا هذه الأديان بالدراسة والمقارنة، منهم القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: 415هـ)، والجويني (ت: 478هـ)، والغزالي (ت: 505هـ)، والرازي (ت: 606هـ) من الأشاعرة، بالإضافة إلى ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ) من المدرسة السلفية.

ثالثاً: مجموعة من العلماء الذين عاشوا في ظل الحضارة الإسلامية، وهم علماء مرجعيون في أديانهم، ومنهم «يحيى بن عدي» (ت: 363هـ) الذي وُصف بأنه حجة دين النصرانية، برهان النحلة اليعقوبية، وأبو البركات البغدادي (ت: 547هـ) صاحب كتاب «المعتبر في الحكمة»، وموسى بن ميمون (ت: 601هـ) صاحب كتاب «دلالة الحائرين»، وهبة الله بن كمونة (ت: 676هـ) صاحب كتاب «تنقيح الأبحاث في البحث عن الملل الثلاث» وكتاب «الجديد في الحكمة»، وهؤلاء يمثلون ثروة علمية عظيمة في مجال مقارنة الأديان سواء كانت مدحاً أو قدحاً في الإسلام.

أما المجموعة الرابعة الأخيرة، فهي «تمثل تراثاً مستقلاً متخصصاً في المقارنة بين الأديان، وقدّم هؤلاء دراسة موضوعية مستقلة»¹ منهم:

- أبو الحسن الأشعري (ت: 334هـ) صاحب كتاب «مقالات الإسلاميين».
- أبو الحسن العامري، صاحب كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام».
- أبو الريحان البيروني، صاحب كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة».

- ابن حزم الأندلسي (ت: 456هـ) صاحب كتاب «الفصل في الجمل والأهواء النحل».

- عبد الكريم الشهرستاني (ت: 548هـ) صاحب كتاب «المِلل والنحل».

بهذه المؤلفات وغيرها، أرسى المسلمون علم مقارنة الأديان والتأريخ لها قبل الغربيين بعدة قرون؛ حيث نشطت في العصر الحديث الدراسات المتعلقة بالأديان والفلسفات الدينيّة، وصار لها في جامعات العالم أقسامٌ متخصصة باسم «مقارنة الأديان».

وأصبح من حقائق التاريخ أن مقارنة الأديان - تلك الدراسة التحليليّة النقدية، بغض النظر عن الأهداف والمنطلقات - قد ظهرت بوصفها نشاطاً علمياً، له أصوله وقواعده ومناهجه ومفاهيمه في الفكر الإسلامي.

وتعرض الدراسة لهذه المقارنة عند العامري والبيروني من خلال معرفة نظرتهم ومنهجهم وأفكارهما في بيان العلاقة بين الأديان.

ثانياً: نظرة العامري والبيروني في التأريخ للأديان

كانت النظرة السائدة - قبل العامري والبيروني - لتأريخ الأديان هي نظرة أهل الحديث؛ إذ بدأت الدراسات التاريخية متصلة بالدراسات الحديثيّة، وكان «أسلوب الرواية هو أسلوب الحديث شكلاً ومبنى»².

1 - محمد دين: من مناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان - حولية الجامعة الإسلاميّة العالمية - باكستان، ع (3)، 1995م، ص 84.

2 - عبد العزيز الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز زايد للتراث والتاريخ - الإمارات، 2000م، ص 87.

وأكدت تلك النظرة للتاريخ على أنه جزءٌ من العلوم الشرعيّة، وهو علمٌ مساعد لعلم «الجرح والتعديل»، كما استفاد علم التاريخ نفسه من علم الحديث في تقييم المؤرخين.

وقام التاريخ في أساسه للتأريخ للسيرة والمغازي والتراجم والفتوحات، ونُظر إليه على أنه «علم ضبط الروايات، والتحقق من مصداقيّة أسانيدھا وتواترها؛ لكشف التزوير والكذب فيها»¹.

كانت النظرة السائدة

- قبل العامري والبيروني -
لتأريخ الأديان هي نظرة
أهل الحديث؛ إذ بدأت
الدراسات التاريخية متصلة
بالدراسات الحديثيّة، وكان
«أسلوب الرواية هو أسلوب
الحديث شكلاً ومبنى».

ونُظر إلى التأريخ على أنه علمٌ يخدم العلوم الدينيّة الأخرى، ويتممها ويوضحها، خاصةً أن العديد ممن اهتمّ بالتاريخ من الأوائل كانوا من المحدثين أو المفسرين أو الفقهاء، و«الغرض من التدوين هو الحفاظ على الشريعة، وقد جمع العديد من العلماء بين التأريخ والعلوم الإسلاميّة؛ لإدراكهم بحتميّة التلازم»².

ثم ظهرت نظرة جديدة تبناها مؤرخو القرن الرابع الهجري، تجاوزت نظرة أهل الحديث في الكتابة التاريخيّة والتأريخ للأديان، أدرك أصحاب تلك النظرة عزوف أهل الحديث عن استيعاب أديان وفكر الأمم الأخرى، وبرزت هذه النظرة عند العامري والبيروني، فاتجها إلى دراسة الأديان السابقة، ومقارنتها مع الدين الإسلامي.

ولم يعد المؤرخون هم الفقهاء والمحدثين والمفسرين؛ وإنما كانوا مفكرين تناولوا أحوال الأديان والمجتمعات البشريّة بالدراسة، وبيان ما عرّض

1 - وجيه كوثراني: تأريخ التاريخ - اتجاهات - مدارس - مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - بيروت، 2012م، ص 36.

2 - فاروق عمر فوزي: التدوين التاريخي عند المسلمين - مقدّمة في دراسة نشأة علم التاريخ وتطوره حتّى بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ - الإمارات، 2001م، ص 44.

لها من تبدلات وتحولات، ودراستها دراسةً علميةً نقديةً؛ لمعرفة أديانها وعرض عقائدها، ومحاورة أصحابها.

وخصَّص العامري كتابه «الإعلام بمناقب الإسلام» لعقد مقارنات بين الإسلام وغيره من الأديان، فذكره قائلاً: إنه «مشمتم على جُمَل ما اختصَّ به الإسلام من المناقب العلية، ليعلم الناظر فيه أنه بالحري أن يكون ناسخاً للأديان كلها»¹.

كما درس البيروني عقائد الهنود، وعرض لها في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة». ويُعدُّ هذا الكتاب من أعمق الكتب تمثلاً ودراسةً لأديان الهنود وأحوال شعوبها.

ولم يقدِّم البيروني في هذا الكتاب دراسة مفصلة عن جميع أو معظم الأديان السماوية؛ وإنما خصَّص الجزء الأكبر للحديث عن الأديان الهندية، كما يعقد مقارنات أخرى مع ما يدين به العبرانيون مستشهداً بما ورد في توراتهم، وبعقيدة «ماني» المنتشرة بين الفرس².

ثالثاً: منهج العامري والبيروني

قام منهج دراسة الأديان عند العامري والبيروني على أسسٍ نقديةٍ وموضوعية، فهما لم يستغلا النقد للانقضاض على الأديان الأخرى؛ بل كانت دراستهما موضوعيةً عقلانيةً هادئة، لا تعبّر عن شيءٍ سوى الإنصاف العلمي.

ولم يعرف الفكر الغربي «المقارنة» أو «المقابلة» - كمنهج في مجال الأديان - إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في الوقت الذي عرفه العلماء المسلمون منذ العصور الوسطى، وبرز العامري والبيروني في مقدّمة من استخدم منهج المقارنة وطبقه بصورة علمية.

1 - العامري: الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق وتقديم: د. أحمد عبد الحميد غراب، دار الأصاله للثقافة والنشر والإعلام - الرياض، 1408هـ/1988م، ص 71.

2 - د. محمود علي مكي: مقدّمة كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة» للبيروني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة ذخائر رقم (109)، القاهرة، 2003م، ص 21.

ويصف «روسن» - محقق كتاب «الأمد على الأبد» للعامري - منهج العامري في مقارنة الأديان بأنه «مقاربة منظمة للإسلام مع اليهودية والمسيحية والزرادشتية ومذاهب الشرك»¹.

كما وصف «وول ديورانت» - مؤرخ الحضارة الشهير - البيروني بأنه «مثال العالم المسلم في أرقى مراتبه»، وأنه قد سبق «فرنسيس بيكون»؛ إذ قضى بأنه يجب علينا إذا طلبنا العلم أن نصفي عقولنا من جميع الأسباب التي تُعمي الناس عن الحقائق، وأن نتحرر من العادات البالية القديمة، والنزعات المسفّة، والرغبة في الاستعلاء»².

وقام المنهج عند العامري والبيروني على عدة خطوات، منها:

1 - الاعتماد على العقل:

يضع العامري العقل معياراً للحكم والمقارنة بين الأديان؛ فالعقل أمر ثابت ومشترك بين البشر. يقول العامري: إن «العقل المختصّ بالجواهر الإنسي هو أن يعرف الحق، ويعمل بما يوافق الحق»³.

ويقصد العامري بضرورة الاعتماد على العقل في دراسة الأديان أن يبتعد عن الميل العاطفي

المتحيز، الذي يفسد عليه رؤية الواقع والحقيقة، وهذا يقوم عنده بشيئين:

أحدهما: ألا يوقع المقايسة إلا بين الأشكال المتجانسة؛ أي يقارن الأصل بالأصل، والفرع بالفرع.

والآخر: ألا يعتمد إلى خلة موصوفة في فرقة من الفرق غير مستفيضة في كافتها فينسبها إلى جملة طبقاتها، «ومتى حافظ العقل في المقابلة بين

قام منهج دراسة الأديان عند العامري والبيروني على أسس نقدية وموضوعية، فهما لم يستغلا النقد للانقضاض على الأديان الأخرى؛ بل كانت دراستهما موضوعية عقلانية هادئة، لا تعبر عن شيء سوى الإنصاف العلمي.

1 - أورت. ك. روسن: مقدّمة كتاب «الأمد على الأبد» للعامري، دار الكندي - بيروت، 1957م، ص 57.

2 - إسماعيل مظهر: سير ملهمة من الشرق والغرب، مكتبة النهضة - القاهرة، 1961م، ص 23.

3 - العامري: الإعلام، ص 73.

الأشياء على هذين المعنيين فقد سهل عليه المأخذ... وكان ملازماً للصواب في أمره»¹.

وهذه الخطوة اعتمدها البيروني أيضاً عندما نادى بأهمية التحرز من إفسار العاطفة الدينيّة، والتخلّص من ثنائية المذموم والمحمود في دراسة الأديان، ودراستها دراسة موضوعية؛ إلا أن التجرد المطلق مطلبٌ عسير؛ لأن الباحث ذاته وثقافته وعقيدته تظهر آثارها في دراسته.

ويشير البيروني إلى أنه لم يجد من أصحاب كتب المقالات أحداً قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مدهانة سوى أبي العباس الإيراني شهري² (ت: ق3هـ)؛ إلا أن هذه المحاولة من الإيراني شهري قد أخفقت عندما قام بدراسة عقائد الهند، مما دفع البيروني للقيام بتلك المهمة.

2 - الالتزام بالموضوعية:

تميّز منهج العامري في الحديث عن الأديان بالموضوعية والصدق؛ فهو لم يبالغ في التهوين من شأنها؛ بل حاول إشاعة روح التسامح تجاه الآخر بصفة عامة، والآخر الديني بصفة خاصة. يتضح ذلك من خلال حرصه على الاعتراف بشرعية غير المسلم، ودراسة أديانه، في وقت دأبت فيه الأدبيات الفقهية الإسلاميّة على رفض الآخر وإقصائه، رغم اعتراف النصّ القرآني بحقوقه.

ويعتمد العامري في ذلك على النصّ القرآني الوارد بذكر الأديان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصْرِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: 17].

وبهذا يكون العامري قد حطّم المحذور الفقهي الذي يحذّر من مجرد الاطلاع على كتب الآخر، سواء كانت دينيّة أم علميّة، ودعا صراحة إلى النظر في الأديان الأخرى مستشهداً بآيات من القرآن الكريم، ومن مواقف الصحابة رضوان الله عليهم، ومنهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب³.

1 - العامري: المصدر السابق، ص 125.

2 - البيروني: تحقيق ما للهند، ص 4.

3 - العامري: الإعلام، ص 111.

بل إن موقفه المتسامح من الآخر لم يقتصر على النظر في الأديان؛ بل نادى بوجوب النظر في علوم الآخرين والاستفادة منها؛ حيث أكد أن المفكرين والعلماء المسلمين قد استفادوا كثيراً من الثقافات الأجنبية؛ مثل اليونانية والهندية، فيقول: «ثم وجدنا الأتباء من أهل الإسلام قد سعدوا.. لنقل الكتب المنسوبة إلى ذوي الشهرة من حكماء الروم وحكماء الفرس وحكماء الهند وحكماء يونان، واستقصوا تأمل معانيها، وحلوا مواقع الشبهة منها، وتولّوا شرحها وإذاعتها، وتادّبوا في أبوابها بكمال تأديب الله تعالى»¹.

تميّز منهج العامري في الحديث عن الأديان بالموضوعية والصدق؛ فهو لم يبالغ في التهوين من شأنها؛ بل حاول إشاعة روح التسامح تجاه الآخر بصفة عامة، والآخر الديني بصفة خاصة.

والتزم البيروني الموضوعيّة؛ لأنه رأى أن أغلب من قام بالمقارنة للأديان إما متعاطف معها أو متحامل عليها، فحرص على التزام الموضوعيّة في عرض الأفكار والمعتقدات، والتجرّد عن التمييز العنصري والتحيز الديني، فهما - في نظره - مذمومان، مدلاً على ذلك بقوله: «فَمَنْ مُجْبِرٍ عن أمرٍ كَذِبٍ يقصد فيه نفسه، فيعظم به جنسه... أو يقصدها فيزري بخلاف جنسه.. ومعلوم أن كلا هذين من دواعي الشهوة والغضب المذمومين»².

كما التزم البيروني منهج الصدق في الإخبار عن عقائد الهندود؛ فوصف كتابه «تحقيق ما للهند» بأنه ليس لنصرة مذهب على آخر، أو ملة على أخرى، بل هو كتاب يرصد الحقيقة فقط، فهو ليس كتاب حجّاج أو جدال استعمله للردّ على خصوم الإسلام، ومناقضة آرائهم، إنما هو «كتاب حكاية فأورد كلام الهند على وجهه، وأضيف إليه ما لليونانيين مثله؛ للمقاربة - المقارنة - بينهم»³.

1 - العامري: المصدر السابق، ص 182.

2 - البيروني: تحقيق ما للهند، ص 3.

3 - البيروني: المصدر السابق، ص 5.

ويتحدّث البيروني عن فضيلة الصدق حديثاً نظرياً بالغ الدقة قائلاً: «إن المُجانِبَ للكذب، المتمسك بالصدق هو المحمود الممدوح... وكما أن العدل في الطباع مرضيٌّ، محبوب لذاته، مرغوبٌ في حسنه، كذلك الصدق»¹.

وقد امتدح المستشرق الألماني «شاخ» هذه الشجاعة الفكرية عند البيروني، وُبعده عن التوهم، وحبّه للحقيقة وتسامحه وإخلاصه، كل هذه الخصائص كانت عديمة الوجود في القرون الوسطى².

3 - المعاينة:

يقابل منهج المعاينة ما يعرف الآن في المنهج العلمي الحديث: بالملاحظة الحسيّة والمشاهدة الواقعية؛ أي عدم الاكتفاء في معرفة الظاهرة بجمع المعلومات من الكتب المسطّورة، بل لا بُدّ من الرجوع إلى الواقع لدراستها واختبار مدى صدقها أو كذبها.

وقد تحقق هذا للعامري من خلال احتكاكه بأهل الأديان؛ فقد وُلد في «بلخ» وكانت مركزاً ثقافياً ودينيّاً، ضمّ كثيراً من أهل الأديان، كما تنقل بين مراكز ثقافية عدة، مثل بخارى والريّ وبغداد. وهي من أهم مراكز التجارة والعلم في العصور الوسطى. وقد وصفه أحد معاصريه بأنه «كان من الجوالين الذين بُعثوا في البلاد، واطلعوا على أسرار الله في العباد»³.

ومن خلال تلك الجولات استطاع العامري أن يتعرف عن قربٍ على عقائد أهل الديانات الأخرى، وأن يحاورهم. فالإحاطة بالشيء ضرورة للعلم به؛ فالعلم هو «الإحاطة بالشيء على ما هو عليه من غير خطأ ولا زلل»⁴.

1 - البيروني: المصدر السابق، ص 2 - 3.

2 - علي أحمد الشحات: أبو الريحان البيروني: حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية، تقديم: د. عبد الحليم منتصر، دار المعارف - مصر، 1968م، ص 229.

3 - أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، 1939م - 1944م، ج 3، ص 94.

4 - العامري: الإعلام، ص 80.

كما عاب البيروني على علماء المسلمين أنهم لم يدرسوا عقائد الهند دراسة معاينة، إنما اعتمدوا على الخيال والأساطير، وتعاملوا معها بحسب المنقول من الأخبار، ونادى بضرورة المعاينة؛ لأنها الأساس في معرفة عقائد الآخرين.

وأكد البيروني أن منهج المشاهدة والمعاينة أفضل من المعرفة عن طريق الكتب المنقولة والأخبار الواردة؛ لأن «العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله»¹.

عاب البيروني على علماء المسلمين أنهم لم يدرسوا عقائد الهند دراسة معاينة، إنما اعتمدوا على الخيال والأساطير، وتعاملوا معها بحسب المنقول من الأخبار، ونادى بضرورة المعاينة؛ لأنها الأساس في معرفة عقائد الآخرين.

ولتحقيق هذه الخطوة المنهجية اعتمد البيروني على عدّة وسائل تعينه على تحقيق هذا، منها:

الخطوة الأولى: المعايشة القريبة لأهل هذه الأديان؛ فقد عاش البيروني فترة طويلة بالهند، يقال: إنها تتراوح بين ثلاثين أو أربعين عاماً²، استطاع فيها أن يدرس أحوالهم، ويعرف تقاليدهم، ويقف على أساليب حياتهم، وهكذا هيأت له الظروف أن يكون على مقربة من معرفة معتقداتهم.

الخطوة الثانية: تعلّم لغاتهم؛ إذ إن تعلّم لغة الآخر وإجادتها أمرٌ ضروري لتحقيق التواصل معه، وقراءة مصادره بلغتها الأصلية. وقد درس البيروني اللغة السنسكريتيّة وأتقنها، كما تعلم بعض اللغات الأصليّة؛ مثل اليونانية والفارسية إلى جانب اللغة العربية والعبرية.

1 - البيروني: تحقيق ما للهند، ص 1.

2 - شمس الدين الشهرزوري: تاريخ الحكماء - نزهة الأرواح وروضة الأفراح، تحقيق: د. عبد الكريم أبو شويرب، نشر جمعية الدعوة الإسلاميّة العالمية، 1988م، ص 349. وأيضاً: ظهير الدين البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق: محمد كرد علي، مطبعة الترقّي - دمشق، 1365هـ/1946م، ص 72.

واطلع من خلال هذه اللغات على المؤلفات الأصلية؛ إذ إن الكتب الوسيطة يداخلها الأكاذيب. ويذكر أن أكثر ما هو مذكور في تلك الكتب الوسيطة هو «منحول، وبعضها عن بعض منقولٍ وملقوطة مخلوط»¹.

وقد قرأ البيروني كثيراً من مؤلفات الهنود في مصادرها، وذكر طائفة منها في كتابه، بل إنه ترجم بعضها إلى العربية، كما ترجم بعض الكتب اليونانية إلى اللغة الهندية.

الخطوة الثالثة: تلقي معارف الآخرين من خلال علمائهم الموثوق بهم. وحتى يتسنى للبيروني معرفة معتقدات الهنود، ومعرفة طقوسهم وممارساتهم؛ كان لزاماً عليه أن يُقبل على علمائهم، ورجال الدين عندهم، مستفسراً ومتعلماً؛ حتى يكشف المنظومة الدينيّة من داخلها، وهذه الخطوة المنهجية مفيدة في دراسة الأديان.

وكان البيروني يتحدّث أحياناً عن عقائد هذه الديانات، وكأنه أحد المنتمين إليها؛ لأنه وقف من علمائهم «مقام التلميذ من الأستاذ»². وهذا القول يدلُّ على مدى تواضع العالم، فهو لا يستنكف أن يقف موقف التلميذ وهو في هذه السن المتقدّمة.

رابعاً: أوجه المقارنة بين الأديان

حرص العامري والبيروني على بيان أهمية الدين للبشريّة؛ فالأديان منها السماويّة، التي أنزلها الله تعالى على رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، ومنها أديان وضعها الإنسان، وتُسمى الأديان الوضعيّة.

ويشير العامري إلى ضرورة الدين وفائدته لصالح البشرية قائلاً: «إن الدين كريمٌ الصعبة، يعزُّ من لجأ إليه، ويستتر عيوب من اتصل به، مع ما يذخر له في عاقبته من الغبطة الأبديّة»³.

1 - البيروني: تحقيق ما للهند، ص 4.

2 - البيروني: المصدر السابق، ص 17.

3 - العامري: الإعلام، ص 127.

ولبيان فائدة الدين بوجه عام للإنسان، وبيان أفضلية الدين الإسلامي على بقية الأديان؛ خصص العامري والبيروني أجزاء كبيرة من كتابيهما للمقارنة. ويذكر البيروني أن الهنود «يباينوننا بالديانة مباينة كلية»¹، في حين أنه في الواقع عند المقارنة، نجده يشير إلى أوجه التقارب بين بعض تلك العقائد؛ فهناك أرضية مشتركة تجمع بين الديانتين؛ إذ نجد لأهل الهند كتباً في فقه ملتهم، وفي الكلام - علم الكلام - وفي الزهد والتأله، وطلب الخلاص من الدنيا. فالتشابه يقع أغلبه في مجال الثقافة الدينية. كما أن هناك تشابهاً فيما يتعلق بمنظومة القيم، واعتقادات صوفية الهند تتشابه مع بعض اعتقادات الصوفية في الحضارات الأخرى.

لبيان فائدة الدين بوجه عام للإنسان، وبيان أفضلية الدين الإسلامي على بقية الأديان؛ خصص العامري والبيروني أجزاء كبيرة من كتابيهما للمقارنة. ويذكر البيروني أن الهنود «يباينوننا بالديانة مباينة كلية».

وقد تناول العامري المقارنة بين الإسلام وغيره من الديانات في مجال العقائد والعبادات والمعاملات والعقوبات وغيرها من مجالات.

ففي مجال العقيدة: عقد العامري مقارنات بين العقائد الإسلامية - التي حددها في: الإيمان بالله والرسول والملائكة والكتب واليوم الآخر - بما يقابلها من عقائد في الأديان الأخرى. وتُعد هذه المقارنة أشمل من محاولة البيروني.

1 - الألوهية:

بيّن العامري أن الإسلام تميّز عن الأديان الأخرى بعقيدة التوحيد الخالص، التي تنزه الله عن التشبيه الذي اعتقده اليهود، والتثليث الذي اعتقده النصارى، والضدّ - إله النور وإله الظلام - الذي اعتقده المجوس، والشرك الذي اعتقده عبدة الأوثان.

ويقرر العامري بأنه لم يجد أهل دين من الأديان حريصين على تقديم

1 - البيروني: تحقيق ما للهند، ص 14.

«المقدّمات العقلية لاستخراج النتائج النظرية في استخلاص توحيد الله من شبهات المعاندين ومغالطات المغالطين، ما عني به متكلمو الإسلام»¹.

ويقارب البيروني بين اعتقاد المسلمين في التوحيد واعتقاد الهنود، ويرى أن اعتقادهم أن الله سبحانه هو «الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم، الحي المحيي المدبر، المبقي الفرد في ملكوته (المنزه) عن الأضداد والأنداد، لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء»² من صفات المخلوقين.

ونلاحظ أن البيروني لا يعقد مقارنة بين الإسلام والهندوسية في عقيدة توحيد الألوهية فقط، بل يقارب بينهما في الصفات الإلهية؛ فالله عندهم - مثلما هو عند المسلمين - واحد لا شريك له، أزلي أبدي، قادر حكيم، عالم قادر، خير محض، إلى آخر تلك الصفات؛ إلا أن هذه هي معرفة خواص علمائهم؛ أما عامتهم فيصرحون بالتشبيه والتجسيم.

2 - النبوات:

يضع العامري الاعتقاد بالنبوات في الركن الثاني من أركان العقيدة عند المسلمين، ويشير إلى أن أهل الأديان لم يَسلموا في موضع الأنبياء من الغلو والتقصير؛ أما الغلو فهو ما ادعته النصارى من ألوهية عيسى عليه السلام، وأما التقصير فوصف اليهود لأنبيائهم، وتكذيبهم وقتل بعضهم بغير حق.

أما عقيدة الإسلام في الأنبياء فهي العقيدة الصحيحة المتوازنة؛ إذ تجمع بين العبودية والرسالة؛ لأنها قالت عن الأنبياء «إنهم عباد الله، مصطفون وخيارٌ معصومون»³.

ويشير البيروني إلى تقارب الديانات الهندية مع اليهودية والمسيحية في موضوع الرسل، واختلافهم اختلافاً بيناً مع العقيدة الإسلامية؛ إذ إن الرسول في

1 - العامري: الإعلام، ص 128.

2 - البيروني: ما للهند، ص 20.

3 - العامري: الإعلام، ص 130.

اليهودية والمسيحية قد يوصف بأنه (ابن) الإله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، كما وصف اليهود (عُزيراً) بأنه ابن الإله، ووصف النصارى عيسى كذلك.

ويرى البيروني أن (الأبوة) و(البنوة) متقاربان، والإسلام لا يسمح بهما؛ إذ الولد والابن في العربية متقاربا المعنى، وما وراء الولد من الوالدين والولادة منفيٌّ عن معاني الربوبية¹.

وقد اختلفت الديانات الهندية في موضوع النبوات اختلافاً واضحاً؛ فبعضها يصرح بوجود الأنبياء، ومنها ما ينكرها أصلاً؛ فقد أنكر بعض البراهمة النبوة.

يضع العامري الاعتقاد بالنبوات في الركن الثاني من أركان العقيدة عند المسلمين، ويشير إلى أن أهل الأديان لم يسلّموا في موضع الأنبياء من الغلو والتقصير؛ أما الغلو فهو ما ادعته النصارى من ألوهية عيسى عليه السلام.

وأثرت تلك الفكرة على بعض المفكرين الذين ظهروا في الحضارة الإسلامية، أمثال أبي الحسين بن الراوندي (ت: 245هـ)، وأبي بكر بن زكريا الرازي (ت: 311هـ)². وعُرفت هذه النظرية باسم «العقل الطبيعي»، وتعني أن في إمكان العقل وحده الوصول إلى كل الحقائق الدينية، ومن العبث إرسال الرسل، وقد رصد ابن الراوندي هذا في كتاب باسم «الزمردة».

3 - الملائكة:

يؤكد العامري أن عقيدة المسلمين في الملائكة من أصح العقائد الإيمانية بين الأديان. وقد كان بعض المشركين يعبدون الملائكة بوصفهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وادّعى الثوية والمجوس أن الآلهة القديمة بعد موتها عادت في صورة ملائكة تستحق العبادة، وتكاد توضع في مصاف الآلهة، وادعى اليهود أن الملائكة يجوز على الواحد منهم أن «يرتكب الكفر، وأن يعاقبه الله تعالى بالمسخ»³.

1 - البيروني: ما للهند، ص 28.

2 - عبد الرحمن بدوي: تاريخ الإلحاد في الإسلام، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، 1945، ص 100 - 101. وأيضاً: بول كراوس: مقالة عن كتاب الزمردة لابن الراوندي، مجلة الأديب - بيروت، 1943م، مج 2، ج 9، ص 30 - 31.

3 - العامري: الإعلام، ص 131.

كما أشار البيروني إلى الاعتقادات الدينيّة والفلسفيّة الفاسدة حول الملائكة؛ إذ ينسب لبعض فلاسفة اليونان الاعتقاد بأن الكواكب هي الملائكة، فكان «اليونانيون يوقعون اسم الآلهة على الأجسام المحسوسة في السماء، كما عليه كثير من العجم»¹؛ فقامت نظريّة الأفلاك ونظريّة الفيض على تأويلات نُسبت إلى العقول الأربعة، الأولى أسماء الملائكة، وأما العقل الأخير فهو العقل الفعّال المتصل بعالم ما تحت فلك القمر.

4 - الكتب السماوية:

بيّن العامري ميزة القرآن الكريم على الكتب السماوية السابقة من عدة وجوه، تعود إلى إعجازه في صورة الخطاب، وفي نظم الألفاظ، وفي تأليف المعاني؛ فالكتب السماوية، وإن كانت كلها جليلة القدر، فالذي استجمعه القرآن هو شيء بايّن به الكتب².

وعرض البيروني الكتاب المقدس عند الهنود، وهو (بيد = الفيدا)، ومعناه العلم بما ليس معلوم، وهو كلام نسبوه إلى الإله، ولا يعلمون تفسيره، ويتلوه البراهمة تلاوة من غير تفسير. وهذا الكتاب اختلطت به مجموعة من الأساطير اليونانية.

5 - الإيمان بالآخرة:

وهو ما يُعرف عند المسلمين بالإيمان بالبعث يوم القيامة. ويشير العامري إلى أن عقائد الأديان الأخرى فيه تنقسم إلى ثلاث عقائد:

أ - عقيدة التناسخ، وهي الاعتقاد بأن الروح تنتقل من جسم لآخر، سواء كان جسم إنسان أو حيوان أو نبات. وقد قال بالتناسخ بعض فلاسفة اليونان، ومنهم فيثاغورس، وتسربت إلى أفلاطون³، وذكرها في شكل أسطورة.

1 - البيروني: تحقيق ما للهند، ص 27.

2 - العامري: الإعلام، ص 132.

3 - ذكر أفلاطون هذه الفكرة في عدة محاورات؛ مثل الجمهوريّة والقوانين، وفايدروس، وفيدون.

ويذكر البيروني أن التناسخ من أصول الديانة الهندية، ومن لم يعتقدوها لا يُعدّ من أتباع تلك الديانة، وقد أشار إليها قائلاً: «كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والأسبات - أي القول بتحريم السبت - علامة اليهودية؛ كذلك التناسخ عُلِمَ النحلة الهندية؛ فمن لم ينتحله لم يكُ منها، ولم يُعدّ من جُمَلتها»¹. وقد انتقلت عقيدة التناسخ من الهند إلى إيران على يد (ماني) الذي أدخلها في ديانته - المانوية.

ب - عقيدة انقلاب النفس إلى حالة النور، وهو الثواب، أو انقلابها إلى الظلام، وهو العقاب. وهذه عقيدة «الزرادشتية».

ج - عقيدة التطهر وإخلاص الأرواح من الأجساد وهذا هو الثواب، أما استمرارها في ملازمة الجسد فهذا هو العقاب. وقد أخذت بهذه العقيدة بعض المذاهب الفلسفية، ولها أصول دينية هندية وفارسية.

وتقوم هذه العقيدة على أساس أن الجسم شرٌّ؛ لأنه مكوّن من المادة، وهو سجن للنفس، وإخلاصها وسعادتها في التخلص منه، ومفارقة العالم الأرضي للعودة إلى عالمها الحقيقي، العالم العلوي.

وقد اختلطت هذه التصورات الدينية بعناصر أسطورية من اختراع العقل الإنساني، أما عقيدة الإسلام، فهي العقيدة الحقّة، وأن الله تعالى «يُعيد الأرواح إلى أجساد الموتى... وأن الثواب لا محالة يقع في جنس المُولد، والعقاب في جنس المُولم»².

1 - البيروني: تحقيق ما للهند.

2 - العامري: الإعلام، ص 134 - 135.

بيّن العامري ميزة القرآن الكريم على الكتب السماوية السابقة من عدة وجوه، تعود إلى إعجازه في صورة الخطاب، وفي نظم الألفاظ، وفي تأليف المعاني؛ فالكتب السماوية، وإن كانت كلها جليلة القدر، فالذي استجمعه القرآن هو شيء باين به الكتب.

ثم يطبق العامري قاعدة «إن خير الأمور الوسط» على كل الأديان؛ ليبيّن أن أحق الأديان بطول البقاء ما وُجِدَتْ أحواله متوسطةً بين الشدة واللين، «وكل دين لم يوجد على هذه الصفة، فمن المحال أن يُسمى هيئاً فاضلاً»¹.

ويطبّق العامري هذه القاعدة على ميادين الحياة الإنسانية في العبادات والمعاملات، وفي الأنظمة السياسيّة والاجتماعيّة، وفي المجالات الحضاريّة والثقافيّة، لينتهي إلى أن الإسلام هو الدين الحق، وأنه أحق الأديان بالبقاء؛ فهو دين الله الذي أرسل به كلّ رسله، وحاوّر فيه أهل الأديان الأخرى، ودعاهم إلى الإيمان به، بالحكمة والموعظة الحسنة.

خامساً: تقييم محاولة العامري والبيروني:

عند المقارنة بين دراسة العامري للأديان وغيرها من الدراسات - مثل «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم، و«الملل والنحل» للشهرستاني - نجده اشترك معها في أفكار وافترق عنها في أفكار. مما اشترك فيه موضوعُ المقارنة بين الأديان، ومما انفرد به أنه لا يدرس تاريخ الأديان فقط؛ وإنما يُعنى بفلسفتها أيضاً.

وقد امتاز العامري بالثقافة الدينيّة الواسعة، والخبرة الفلسفيّة المعمّقة، والتجارب التي اكتسبها من خلال أسفاره وجولاته وإقامته في العواصم الثقافية الكبرى في العالم الإسلامي، واحتكاكه المباشر بأهل الأديان والتعرف عن قرب على عقائدهم.

وهكذا كان فهم العامري للإسلام يتميّز بالإدراك العميق لروح هذا الدين وسماحته، وكانت دراسته محاولةً رائدة في علم مقارنة الأديان، تمّت منذ أكثر من ألف سنة، تميّزت بالمنهجية والموضوعية.

هذه الموضوعية التي تجلت من خلال نظريته للأديان الأخرى من خلال الإسلام، ونظر إلى الإسلام نفسه على أنه الدين الكامل الذي يكرم العقل الإنساني، وأنه نظام شامل متكامل للحياة الإنسانية.

1 - العامري: المصدر السابق، ص 137.

كما درس البيروني عقائد الهند، بجانب عقائد أديان أخرى، وكان له أسلوبه الخاص في عرض مادته التاريخية مقارنة بمن سبقه، فهو لم يكتب حوادث تاريخية على الحوليات مرتبة ترتيباً تاريخياً، ولم يقصرها على جهود الخلفاء، كما فعل اليعقوبي (ت: 284هـ) في تاريخه، أو مسكويه (ت: 421هـ) في «تجارب الأمم»، وإنما قدّم تاريخاً مختصراً عن الأديان الهندية، وأراد أن يطور معرفة المسلمين بأديان الهند، وتضرد بتقديم تاريخ اجتماعي ديني ثقافي لم يقصره على الأديان وحدها.

**كان فهم العامري للإسلام
يتميّز بالإدراك العميق
لروح هذا الدين وسماحته،
وكانت دراسته محاولةً
رائدة في علم مقارنة
الأديان، تمّت منذ أكثر
من ألف سنة، تميّزت
بالمهنية والموضوعية.**

كما حاول البيروني أن يقدّم صورة صادقة للقيم الهندوسية؛ ليفتح الطريق أمام التفاهم المشترك والحوار العلمي بين المجتمعين العربي والهندوسي؛ فلم تكن نظرتة من مبدأ رفض الآخر؛ وإنما استيعابه بعد دراسته، وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف، ولعل عنوان كتابه دالٌّ على هذا؛ فليس كل عقائد الهند عنده (مرذولة)؛ بل منها ما هو (مقبول) ويمكن على أساسها إقامة أرضية مشتركة للتقارب بين الشعوب.

وبعد محاولة البيروني في التأريخ للأديان جاء الشهرستاني، الذي حاول أن يؤرخ للملّ والأديان والنحل في كتابه «الملل والنحل»، فوجدناه لم يستفد من منهج البيروني الموضوعي، ولم يضيف إلى ما صنعه البيروني شيئاً من الناحية المنهجية؛ بل إنه لم يستطع أن يجاريه على الأقل في موضوعيته؛ إذ إن قيمته تتضاءل كثيراً إذا ما قورن بالبيروني الذي عاش قبله بقرنٍ واحد.

وسبب هذا الإخفاق الذي لحق بالشهرستاني يعود إلى اعتماده على الكتاب المسمى «الفرق بين الفرق»، وهو من تأليف الأستاذ أبي منصور البغدادي (ت: 429هـ)، وكان هذا الأستاذ شديد التعصّب على المخالفين، فلا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه الصحيح.



كما كان البيروني من أهم علماء مقارنة الأديان، بلغ أقصى ما يمكن أن يصله عالمٌ منْ موضوعيّة، وكان كتابه وثيقة تاريخيّة وحضاريّة فريدة، تكشف عن عدل المسلمين مع الآخرين، في وقت كانوا هم سادة العالم وغيرهم ضعفاءً.

استخدم البيروني - في عرض عقائد الأديان ودراستها - المنهج التاريخي والأنثروبولوجي، فدراسته لم تكن سرداً تاريخياً لاعتقادات الهنود الدينيّة والعلميّة والأخلاقيّة فقط؛ بل أقام المقاربة في إطار علمي محايد.

خلاصة القول أن مقارنة الأديان عند العامري والبيروني لم تكن مجرد مقارنة تستهدف الانتصار لدين على دين؛ ولكنها محاولة علميّة لتثبيت قواعد الدين وأهميتها للمجتمع الإنساني أفراداً وجماعات، وهما معاً يؤسسان لمنهجية صارمة في الرؤية الدينيّة لمقولات الفرق المختلفة من التأسيس العلمي لمقارنة الأديان بوصفه علماً تصبح العلوم الإسلاميّة مناصرة له لا متناحرة معه، ولعل هذا التأسيس المبكر لهذه الأطروحة الفلسفيّة يُعدُّ أحد الأدلة القاطعة على دور المسلمين الرائد في تقديم تاريخٍ للأفكار، يتسم بالجدة والموضوعيّة والحياد العلمي.